السلوك السوي والسلوك الشاذ

بقراءتك هذه الوحدة ستتمكن من:

- تحديد معنى السلوك.
- التعرف إلى تدرج تشكل السلوك الإنساني.
- تحديد الفروق بين كل من الشذوذ، الاختلاف، والمرض، وسوء التكيف.
- التعرف إلى معايير متنوعة في النظر إلى الشذوذ (المعيار الطبيعي، المعيـار الاجتمـاعي، المعيار الإحصائي، المعيار النفسي الموضوعي).

1. السواء والشذوذ في سلوك الفرد

يقوم سلوكك عادة بتنظيم علاقاتك كفرد بمحيطك، ويمكنك أن تميز عادة بين سلوك طبيعي وآخر غير طبيعي (غريب)، سلوك متفق مع المعايير السائدة في مجتمع ما وسـلوك مخـالف لهـذه المعايير، بكلام آخر بين سلوك سوي وسلوك شاذ. والسلوك الشاذ أساس في فهمنا لصحة الفرد النفسية المتردية، في حين يشكل السلوك السوي إشارة تدل على الصحة النفسية الجيدة.

ولكن مهلاً.. ما هو الحد الفاصل حقاً بين سلوك طبيعي وغير طبيعي؟ بين سـلوك غريـب أو مألوف؟ هل هناك من حد فاصل وواضح بين ما هو سوي وما هو شاذ؟

2. ماذا يعني السلوك؟

السلوك كلمة عامة، اشتهرت إحدى المدارس النفسية بانتسابها إليه وهي النظرية السلوكية. رأى **رواد السلوكية**[1] أن على علم النفس أن يركز دراسته على كل ما هو قابل للملاحظـة والقيـاس لكي يكون علماً حقيقياً، بدلاً من التركيز على مكونات صعبة الملاحظـة، مثـل اللاشـعور، أو وسائل الدفاع الأولية أو غير ذلك مما ركز عليه **رواد نظرية التحليل النفسي**[2].

والسلوك ظاهرة واسعة، تشمل كل ما يفعله الفرد، كالحركة والكلام والنوم والتعلم، بل وكـذلك أفعاله الداخلية مثل الإدراك والتفكير والتخيل بل وحتى التهيج والانفعال والمنعكسات العـصبية وإفرازات الغدد المختلفة.

---

[1] على رأسهم واطسن، ثم تابع أعماله فيما بعد سكنر الذي ظل لفترة طويلة رائد هذه النظرية.

[2] وعلى رأسهم سيغموند فرويد، وتلاميذه من بعده مثل يونغ، آدلر، رايش، فروم، هورني وغيرهم.

3. كيف يتشكل السلوك؟

يبدأ السلوك بسيطاً عند الإنسان، إذ يقوم الطفل الوليد بعدد قليل من **أشكال السلوك الـلاإرادي**[1]، وبتقدمه في العمر يبدأ السلوك في **التعقد تدريجياً**[2]، وتبدأ المثيرات البيئية في ترك آثار واضحة في سلوكه، وبالتدريج تزداد نسبة أشكال السلوك الإرادي، وتظهر لدى الطفل أشـكال الـسلوك اللغوي ليزداد بذلك تفاعله مع محيطه تعقيداً وتجريداً. يصبح الطفل أشد تـأثراً وانـدفاعاً وراء كثير من المثيرات الخارجية، والداخلية. وتبدأ **القوى التي تشده في تعددها**[3] بأن تجعله يختـار المثير الذي ينشد إليه أكثر من غيره. يتكون السلوك إذاً من تفاعل مجموعة كبيرة من القـوى، داخلية وخارجية، تتفاعل كلها تفاعلاً معقداً داخل الموقف.

4. اختلاف، شذوذ، أم مرض؟

إذا كان السلوك السوي بهذا التعقيد، فإن السلوك الشاذ سيكون بالتأكيد أصـعب وأشـد تعقيـداً. ويتداخل مصطلح الشذوذ مع مصطلحات أخرى قريبة منه كالاختلاف والمرض.

ما الفرق بين الاختلاف والشذوذ؟

الاختلاف بين الناس يعني تفاوتهم في صفات معينة ضمن حدود مقبولة، التفاوت في الطـول أو الوزن أو حتى في الآراء. ويندر أن يتجاوز هذا التفاوت حدوداً معينة ومألوفة، فـإذا تجاوزهـا أصبح شذوذاً. أي أن كل شذوذ فهو اختلاف، **ولكن ليس كل اختلاف شذوذاً**[4].

ما الفرق بين المرض والشذوذ؟

المرض اختلال في عمل عضو أو جهاز جسدي أو نفسي، يقود إلـى ظهـور مجموعـة مـن الأعراض، تترافق مع بعضها ويكون لها عادة مجرى تطوري معـين، يتـشابه بـين الأفـراد المصابين بها. لذلك، حين نرى عملية التشخيص المرضي فإننا نرى **قراءة وتتبعـاً لأعـراض معينة**[5] لها دلالات محددة في معرفة نوع وشدة المرض الذي يعاني منـه الـشخص. وبحـسب النظرة الطبية لا يتم الحكم بوجود مرض عند شخص ما دون توفر هذه الأعراض ضمن شـدة

---

[1] كالتنفس والبكاء وتحريك اليدين والرجلين والمنعكسات البسيطة كمنعكس المص

[2] فطفل في شهره الثاني يبدأ في استخدام أذنيه وعينيه في التعرف إلى محيطه، ويصبح لصوت بكائه نغمة تختلف حسب حالته الفيزيولوجية، كبكاء الجوع أو الألم أو التعب.

[3] كأن يتغلب دافع الجوع في النهاية على شدة الرغبة في اللعب، وليس هذا الذي نصفه إلا مثالاً مفرطاً في التبسيط أمام التعقد الكبير في عدد المثيرات التي سيختبرها الطفل في تعقيد تطور سلوكه.

[4] وهذا يجعلنا مرة أخرى أمام مسألة المعيار، أو الحد الذي نعتبر تجاوزه شذوذاً وعدم تجاوزه بقاء في حدود مجرد الاختلاف.

[5] مثلاً: في مرض الاكتئاب يكون هناك 12 عرضاً مرضياً مختلفاً، فإذا كان عند فرد منها ثلاثة أعراض اعتبرناه مصاباً باكتئاب خفيف، وإذا كان عدد الأعراض التي يعانيها ستة اعتبرناه يعاني من اكتئاب متوسط الشدة، أما حين يعاني من تسع أعراض فما فوق فإن حالة الاكتئاب عنده ستكون عميقة ويمكن أن نسميها هجمة اكتئاب كبرى.

معينة واستمرار معين. وبهذا المعنى فالمرض شذوذ بوصفه اختلافاً عن حالة الكائن الـصحية، يصل إلى حد مؤذ وغير مألوف، ولكن ليس كل شذوذ مرضاً من حيث أنه ليس كـل اخـتلاف كبير مناف بالضرورة للحالة الصحية.

ما الفرق بين الشذوذ وسوء التكيف؟

من الناحية الشكلية، يتشابه الشذوذ وسوء التكيف إذا اعتبرنا مظهر السلوك. لكن من حيث منبع السلوك، فإننا يغلب أن نستخدم مصطلح الشذوذ للإشارة إلى ذلك الاختلاف الكبير عن الآخـرين الذي يعود إلى **أسباب داخل الشخص**[1] ذاته. أما في حال كون الاختلاف ناجمـاً عـن **عوامـل خارجية**[2]، فهو سوء تكيف. ثم إن هناك أيضاً من يؤثرون التمييز بين المصطلحين مـن حيـث الشدة، فالاضطرابات النفسية ذات الشدة المنخفضة يغلب أن يدعونها سوء تكيـف، فـي حـين يدعون شذوذاً تلك الاضطرابات الشديدة.

5. وجهات نظر متنوعة إلى معنى الشذوذ

الفهم العامي للشذوذ[3]

الشذوذ كلمة تُستخدم لوصف الشخص، أو صفة من صفاته، أو سلوكاً يقوم به. وكلمة "الـشذوذ" ترتبط في الفهم العامي بمرض عقلي وبانحطاط أخلاقي، أو سلوك جنسي منحـرف وبـرفض اجتماعي. وكثيراً ما يرفق هذا الفهم بقناعة خاطئة بأن كل شخصية الإنسان تكون مريـضة إذا وجد لديه شذوذ. وهنا كان مفهوم المرض النفسي أو العقلي والشذوذ يجتمعان معاً، ليتصلا بشكل وثيق ببعض المصالح الاجتماعية المتعلقة بالسلطة (**الدينية أو السياسية**[4]) ولهذا نجد أن كثيـراً

---

[1] كالأسباب الوراثية أو الخلل في إفرازات الغدد الصم.

[2] ضغط اجتماعي، كالفقر المدقع أو تأثير جارف لجماعة الأقران.

[3] اختبر معلوماتك عن مفهوم الشذوذ، عبر وضع إشارة صح (✓) أو خطأ (✗) لكل من العبارات التالية:

السلوك الشاذ مثير للعجب والاستغراب دائماً.

قليل مما يفعله المضطربون نفسياً يمكن اعتباره "استثنائياً"، فجوهر الشذوذ هو عدم تناسب السلوك والموقف.

يصعب التنبؤ بما يمكن أن يفعله المضطربون نفسياً، إنهم خطرون.

علمياً، كل فرد يمكن أن يصاب باضطراب نفسي وأن يبدي بعض الشذوذ في سلوكه.

المضطرب نفسياً ليس على العموم أكثر خطراً من الآخرين. لكن استثناءات قليلة من هذه القاعدة تذيع وتشوه الصورة. الشخص المتوسط الذي يصاب باضطراب نفسي لديه فرصة كبيرة في أن لا يقع أبداً من جديد في الاضطراب النفسي، مع أن احتمال الشفاء التام قليل.

يتعذر تمييز سلوك الأشخاص المضطربين لمعظم الوقت عن سلوك غيرهم من الأشخاص.

يختلف السلوك السوي والسلوك الشاذ نوعياً.

الاضطراب النفسي مرتبط بخلل أساسي في شخصية صاحبه.

[4] للفهم العامي جذور عميقة في تاريخ التعامل مع حالات الشذوذ. فعبر التاريخ كان هناك اعتقادات شائعة، ذات منشأ ديني غالباً، تُعامل الشذوذ والمرض كشيء واحد، وسببهما الأساسي هو ارتكاب الشخص المعاصي، وكعقوبة فإن أرواحاً شريرة أو جِنّاً أو شياطين تحل بجسد المريض وكان ينجم عن هذا ممارسات عنيفة لتعذيب الأجساد المسكونة لطرد الأرواح الشريرة منها.

من المعارضين السياسيين في العصور الوسطى كان يتم اتهامهم بالمرض النفسي أو بممارسة السحر والشعوذة والتجديف.

الاتجاه الطبيعي في فهم الشذوذ

يرى القائلون بهذا الاتجاه أن نظام الطبيعة هو الأكمل وهو معيار السواء، فكل ما يخالفه يعتبر شذوذاً وانحرافاً عن القاعدة. ويعتد أصحاب هذا الاتجاه بالتوازن البيئي المدهش الذي يجعل لكل كائن تكاملاً في دورة الحياة الطبيعية، ويؤدي الإخلال بهذا التوازن إلى كوارث بيئية خطيرة. وهكذا فإن الدوافع الموجودة لدى كل كائن وطرائق إشباع هذه الحاجات هي جزء من نظام أسمى، ينبغي عدم الخروج عليه. **الاستواء**[1] بهذا المعنى هو إذن العمل وفق **مقاصد الطبيعة وأغراضها**[2]، والشذوذ هو كل عمل يقوم به الإنسان بمحض إرادته ويكون **ضد الطبيعة**[3].

الاتجاه الاجتماعي في تحديد الشذوذ

المجتمع هو الإطار الأساسي الذي يتربى فيه الفرد، وهو التي يعلمه كيفية قضاء حاجاته والتوافق مع البيئة التي يعيش فيها. **وأثر الجماعة فعال**[4] إلى درجة تجعلنا نتعلم في الجماعة بيسر، في حين أن حياة الفرد خارج جماعة أمر شبه مستحيل، لأنه لا يتعلم والحالة هذه العادات والسلوكيات البشرية. هذه المكانة الكبيرة للمجتمع في سلوك الفرد هي التي تجعل أصحاب هذا الاتجاه يحكمون على سواء السلوك أو شذوذه انطلاقاً من معايير الجماعة: فما وافق من سلوك الإنسان معايير الجماعة التي يعيش فيها فهو سوي، وما خالفها فهو شاذ. وبهذا المعنى فإن الشذوذ نسبي، فما هو سوي في جماعة معينة قد يكون شاذاً في جماعة أخرى، وما يقبله بعض المجتمعات ترفضه مجتمعات أخرى.

---

[1] فالدافع الجنسي مثلاً هو وسيلة لاستمرار الأنواع وتناسلها، وبالتالي فإن أي سلوك جنسي يخرج عن هذا الغرض يعتبر شذوذاً. وبهذا المعنى فإن العمل على تنظيم النسل أو منع الحمل يعتبر عملاً شاذاً لأنه مناقض لأهداف الطبيعة.

[2] والنقد الذي يمكن توجيهه لهذا الاتجاه هو في هذه النقطة بالذات، فمن الذي يفسر لنا مقاصد الطبيعة؟ إن فهم أغراض الطبيعة ينطوي على كثير من التأويل الشخصي لكل صاحب وجهة نظر، وهذا يبدو لنا بوضوح أكبر إذا تركنا عالم الحيوان وانتقلنا إلى عالم الإنسان، فهل سكن الإنسان في بيوت يبنيها بشكل اصطناعي هو مناقض لأغراض الطبيعة؟ وهل طهي الطعام عملية طبيعية أم أنها اختراع إنساني؟ ثم إننا نجد حتى في عالم الحيوان ما يشذ عن القاعدة، مثل أكل أم القطط أولادها في بعض الحالات لشدة جوعها، أو مثل قيام بعض القردة في ظروف سجن معينة بالقيام بأفعال جنسية مثلية. كل هذا يجعل المعيار "الطبيعي" صعباً على الاستخدام العملي، ويجعل في غموض أساسه (أي أغراض الطبيعة) ما يجعله قاصراً عن تقديم أساس موضوعي كمعيار للشذوذ في السلوك الإنساني.

[3] وكثير من أصحاب هذا الاتجاه يتحدثون عن الإرادة الغائية والقوى الغيبية التي تقف وراء الطبيعة، كتغيير خلق الله، والسنن الإلهية وغير ذلك.

[4] تظهر لنا الدراسات الممتعة الآتية من الانتروبولوجيا التنوع الكبير في عادات البشر وسلوكهم، فقبائل الطوارق مثلاً في الجزائر اعتادت على أن يتزين رجالها ويتجملوا، في حين أن نساءها يخرجن للعمل دون أي زينة أو غطاء للرأس أو الوجه، وقبائل زوني ميالة إلى تعليم أبنائها كف الغضب والمسالمة والميل إلى التعاون، وهكذا.

الاتجاه الإحصائي في تحديد الشذوذ

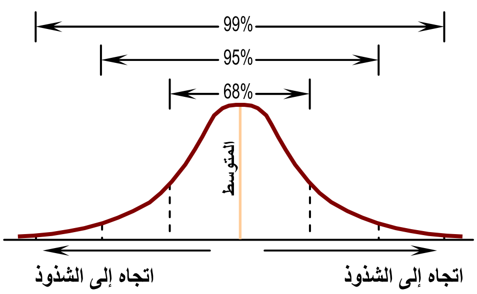
إذا نظرت في عدد من الصفات مثل الذكاء والوزن أو مقاس القدم فستجد تبايناً واسعاً في اتصاف أفراد المجتمع بكل منها، ولكن أغلب الناس يتوزعون حول قيمة معينة، أو متوسط معين للقيم التي تتدرج عليها هذه الصفات، ويمكن الانطلاق من هذا المتوسط لبناء تعريف حسابي (إحصائي) للشذوذ وللسواء. والسلوك الشاذ بهذا المعنى هو السلوك المبتعد عن المتوسط الذي يتجمع حوله أكبر عدد من الأفراد، ويزداد مقدار الشذوذ كلما ازداد البعد عن المتوسط. **وكلما**[1] ابتعدنا عن المتوسط انخفض عدد الذين يتصفون بهذه الصفة، ويكون عدد ذوي الدرجات بالغة الارتفاع كعدد ذوي الدرجات بالغة الانخفاض، **والشذوذ في هذه الحالة هو النادر قليل الحدوث**[2].

الاتجاه النفسي العيادي في تحديد الشذوذ

يأخذ هذا الاتجاه الخيرات الكثيرة الموجودة في الاتجاه الإحصائي، من حيث قدرته على التعامل الكمي الدقيق لمدى ابتعاد الإنسان عن المتوسط ودرجات هذا الابتعاد. غير أن الاتجاه لا يكتفي بهذا المعيار وحده، وكما يقول **جاسترو Jastrow** "ليس الشذوذ في الحادث العجيب، ولا في مجرد الاختلاف عن الغير"، وإنما هو في كون هذه الظاهرة تسيء إلى تكيف الفرد وتظهر أثارها على شكل اضطراب في سلوكه وأدائه لأدواره الاجتماعية، أي إنها توصف بالشذوذ حين يقود التحليل العيادي المتأمل إلى التأكد من وجود الاضطراب الوظيفي فيها. وبالطبع فإن هذا التحليل ينبغي أن يُبنى على **معرفة عميقة بالحالات الشاذة وآثارها على اضطراب وظائف سلوك الإنسان**[3].

---

[1]



[2] وهنا يأتي واحد من أهم الانتقادات التي توجه إلى هذا الاتجاه، وهو أن الابتعاد عن المتوسط يكون في الاتجاهين الإيجابي والسلبي، فإذا كان الأمر يدور حول متحولة مثل الانبساط أو درجة الانفتاح الاجتماعي، فإننا نجد أن المبالغة سواء في اتجاه زيادة هذا الانفتاح أم في اتجاه الانغلاق هو أمر يسيء إلى التكيف ويميل بصاحبه ميلاً مرضياً. لكن هناك كثيراً من المتحولات التي لا ينطبق عليها هذا. مثلاً: درجة الذكاء إن زادت فهل يمكن الحكم عليها بأنها تصبح شاذة؟ هنا نجد قصوراً في هذا الاتجاه لا بد من استدراكه.

[3] أهم ما يميز هذه المعرفة جانبان: المعرفة النظرية بالتصنيفات العلمية للاضطرابات النفسية، إضافة إلى الخبرة العملية والتعامل لمدة كافية مع حالات الاضطراب لدرجة التعرف إلى ميكانيزمات وآليات نشوء الاضطراب بشكل جيد.

6. هل يعقل أن للشذوذ دوراً إيجابياً أيضاً؟

يؤكد البعض أن للشذوذ دوراً أساسياً في فهم المنظومة الاجتماعية بشكل عام، فأشكال الشذوذ قد تكون **تشخيصاً عميقاً لأخطاء النمو الحضاري**[1] إذا سار باتجاه خـاطئ. يفتـرض **إريكـسون Erikson** أن المجتمعات تعرف حدودها بطريقة سلبية لا إيجابية، أي تحدد **ما ليس منها**[2] بـدلاً من أن تحدد ما هو منها. وبناء على هذا يؤكد **إريكسون** أن المجتمع يوضح بهذا حدود ما يتقبله من اختلاف في سلوك أفراده، ليحافظ على حد أدنى من توازنه. وبهذا يلعب الشواذ دور توضيح الحدود لبقية أفراد المجتمع، وإعطائهم الشعور بالهوية والانتماء: بفضلهم يستطيع الآخـرون أن يشعروا بأنهم "طبيعيون" و"أصحاء" و"أخلاقيون".

7. خلاصة

السواء والشذوذ ليسا أمرين منفصلين عن بعضهما تماماً، بل إنه ليس من السهل إطلاقاً أن نجـد معياراً فاصلاً يميز كلاً منهما عن الآخر. وبتعدد المعايير نجد أن البعض يميل إلى اعتبار تقاليد الجماعة التي يحيى فيها الفرد وأعرافها هي الأساس في الحكم على سلوكه سـواء أو شـذوذاً. ويرى آخرون في الالتزام بالحياة الطبيعية بأغراضها العميقة وحكمتها ما يجعلنا ضمن الـسواء أكثر لأننا نكون متوافقين مع طبيعتنا ومع النظام الكوني السامي. ويرى فريق ثالـث أن يعتمـد معيار الندرة، فالسلوك الشاذ غريب وغير مألوف ونادر الحدوث، ويمكننـا أن نقـيس النـدرة بالوسائط الإحصائية البسيطة لنرى مقدار ندرة السلوك والحكم عليه من خلال ذلك.

ويرى معظم علماء النفس أن الأمر لا يقف عند معيار واحد، وهم وإن مـالوا إلـى اسـتخدام المعيار الإحصائي، إلا أنهم لا يقفون فقط عند معيار الندرة، بل يضيفون له مسألة مقدار تـأثر تكيف الفرد وأدواره ويقومون بعملية تحليل علمي دقيق للسلوك ضمن سياقه العام، وهـم بهـذا ستندون إلى الخبرات المتراكمة بالاحتكام مع المضطربين نفسياً، وكذلك من خـلال معـرفتهم النظرية بمواصفات السلوك الشاذ وآثاره على الشخص وحياته عموماً.

والمصطلحات الكثيرة المتشابهة تزيد من صعوبة تناول موضوع الشذوذ ببساطة، ففي كثير من الأدبيات نرى استخدام مصطلحات الشذوذ والانحراف والمرض وسوء التكيف كما لـو كانـت مترادفات لكن الواقع أنها ليست كذلك، فهي تعكس في معظم الحالات درجـة تطـور الـسلوك وشدته ومنشأه أيضاً.

---

[1] انظر مثلاً معنى تزايد انتشار الاكتئاب في زمن تفكك العلاقات الأسرية، ومعنى تزايد القلق واضطرابات القلق المختلفة في عصر التهديدات العالمية بالحروب والصراعات التي صارت تطال الأفراد العاديين وليس فقط العسكريين. انظر أيضاً إلى انغماس الشباب في الموضات والأغاني الهابطة في عصر فقدت فيه الشعارات السياسية بريقها ومصداقيتها.

لمزيد من المعلومات انظر في:

- فرويد، سيغموند (1983) "عسر الحضارة"، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الطليعة.
- بركات، مطاع: (2004) "العجز المكتسب" منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سورية.

[2] التحديد السلبي أسهل من التحديد الإيجابي.